

مكتبة مصر والقجالة تقدم
من مجموعة
مكتبة مصر

ثوب الخليفة

إعداد

أمير سعيد السحار

النشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صديق - الجيزة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠ - فاكس : ٥٩٠٧٥٩٣

لَوْ ذَكَرْتَنِي لَفَعَلْتَ ۚ



الشيخ محمد بن عبد الوهاب

لَمْ تَلْبَثْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ قَامَتْ مِنْ قَوْمِهَا حِينَمَا جَاءَهَا النَّبَأُ .. وَقَدْ تَهَلَّلَ وَجْهُهَا بِالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، وَشَجَّلَهَا نَوْعٌ مِنَ الْغَيْطَةِ وَانْتِشِرَاحِ الصَّدْرِ .. لَقَدْ كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ كَهْلَةً مِنَ النَّشَاطِ الْغَامِرِ وَالْحَرَكَةِ الْمُتَصِلَةِ الَّتِي لَا تَهْدَأُ ، وَلَا تُسِي عَنْ الْقَفْرِ هُنَا وَهُنَاك ..

إِنَّهُ النَّبَأُ الْحَبِيبُ .. إِنَّهَا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ نَصِيْبُهَا مِنَ الْعَطَاءِ .. إِنَّهَا مَسْرُودُهَا خِزَالَةٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ اللَّصُوصِ ، أَمْ مَرَدَّةُ الشَّيَاطِينِ .. سَتَحْفَظُ بِهَا فِي الْمَكَانِ الْحَصِينِ الَّذِي تَرْمُو فِيهِ الْأَمْوَالَ ، وَتَضَاعَفُ مِثْلَ الْمَرَّاتِ .. سَتُفْقِئُهَا عَلَى عِمَالِ اللَّهِ وَأَحِبَّاهِ ، عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ..

لَقَدْ كَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صَالِمَةً فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَجَاءَ إِلَيْهَا الْمَالُ ، فَاخْذَتْ تُفَرِّقُهُ عَلَى أَهْلِهِ وَأَرْبَابِهِ وَمُسْتَحْقِيهِ .. عَلَى هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ الْكَفَافَةَ مِنَ الْعَيْشِ ، وَيَظُلُّ أَحَدُهُمْ طَوَالَ يَوْمِهِ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ جِئَةً وَذُهُوبًا يَسْكُحُ هُنَا وَهَنَّاكَ دُونَ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا يَحْصُلُ مِنْهُ عَلَى مَا يَكْفِيهِ وَأَوْلَادَهُ ، وَيَقِيهِمْ شَرُّ الْحَاجَةِ ، وَأَلَمُ الضَّنَى ، وَمَذَلَّةُ السُّؤَالِ .. !

هَؤُلَاءِ قَوْمٌ يَجِبُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ ، فَيُعْطِيَهُمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ يَخْرُاجُهُ لِأَوْلَئِكَ الْمُتَحَاجِّينِ الْيَوْمَاءِ ... إِنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ لَوْ فَعَلَ مَا كَلَّفَهُ اللَّهُ ، وَأَمَرَهُ بِإِخْرَاجِهِ ، لَمَا وَجِدَ قَمٍّ مِنْ هَذِهِ الْأَفْوَاهِ الْغُرُومَةِ ، وَلَا بَطْنٍ مِنْ تِلْكَ الْبَطُونِ الْجَائِعَةِ .. !!

ويل للفقر من الغنى الصلدي القلب ، القاسي الطباع ، الذي لا يجيد في قلبه ذرة حنان
أو عطف على عيال الله وأحبابه ، فيظل هذا سائراً لاها ، لا يحاول اشترضاء قلب من هذه
القلوب ، أو إشباع بطن من هذه البطون ، بينما هو يعلأ بطنه إلى حد الشح



وشغلت عاتشة هؤلاء الفقراء عن نفسها ، ونسيت ذلك الإجهاد المميت ،
 وأنها خاوية البطن تبيت أكثر الليالي مع رسول الله ﷺ على الطوى ، لا تشبع
 من طعام أو شراب ، ولو شاءت لشيبت ، وملأت البطن وباتت متخمة ..
 وكانت تشعر بلذة ليس وراءها لذة ، وهي ترى هؤلاء المساكين
 يتناولون بأيديهم نصيبهم من المال ، وإن عواطفهم النبيلة التي تفيض بشكرها
 على ما تهديه لهم وتعطيه إياهم لتقع في نفسها موقعا لا يعادله شيء مهما كان
 الأمر .. هؤلاء رجال .. شيوخ أضعفتهم الحاجة ، وعظمهم الفقر بناله ،
 وكهول أضعفتهم الحاجة والمرض ، وأذلهم السؤال والطلب ... هؤلاء نسوة
 مزيلات ، فقدن العائل والنصير ، لا يجدن صدرا يعطف عليهن ولا قلبا





يُشْفِقُ بِهِنَّ ، وَلَا فَوَازًا يَحْوِي عَلِيهِنَّ .. وَيجِدُنَّ فِي هَذِهِ الْمَتَدَةِ إِلَيْهِنَّ
بِالْإِحْسَانِ وَالصَّدَقَةِ عَطْفًا وَرَحْمَةً وَتُبْلًا يَعِجْزُونَ عَنْ تَقْدِيرِهِ وَشُكْرِهِ ، وَلَا يَجِدُونَ
سِوَى شَيْءٍ وَاحِدٍ يَعْبُرُونَ بِهِ عَنْ بَعْضِ مَا يَجِدُونَ ، ذَلِكَ هُوَ الدَّمُوعُ .. إِنَّهَا
لَتَفِيضُ حِينَذَاكَ فَيُضَانًا هُوَ دَلِيلُ التَّجَوُّلِ وَالْوَقْفِ وَالْإِحْوَامِ .. !

وإِنَّ الدَّمُوعَ مِنْ هَذِهِ الْعَيُونِ الْمَقْرُوحَةِ ، لَتَبْعُثُ فِي الْقَلْبِ لَوْعَةً وَأَسَى ، وَرِثَاءً
وَحَنَانًا .. وَمَا أَجَلَ يَدِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ تَمْتَدُّ بِالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ ، تَأْسُو الْجِرَاحَ وَتَوَاسَى
الْمُحْتَاجَ .. إِنَّهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ يَنْشُرُ عَلَى الْعِبَادِ الْوَانَا مِنْ قِيَوضِ اللَّهِ وَنِعَمَائِهِ
الزَّائِرَةِ ، وَمَا أَجْمَلَ الْعَوْنَ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ بَيْنَ الرُّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ
الَّذِي تَضَافَرَتْ قُوَى الشَّرِّ فِيهِ لَتَحْذُلِ الْحَقُّ وَتَرْفَعُ لُؤَاءُ الْبَاطِلِ ، فَأَيُّ اللَّهِ إِلَّا
أَنْ يَرْفَعَ كَلِمَتَهُ ، وَيُعْلِي دِينَهُ ، وَيَجْعَلَ مِنْ هَذِهِ الْفَنَةِ الْمُتَوَاضِعَةِ الْمُتَعَاوِنَةِ فِي الْحَقِّ
- بِهِ نَحْيَا ، وَفِي سَبِيلِهِ نَمُوتُ - أُمَّةً تَبْعُثُ الْحَيَاةَ فِي مَوَاتِ الْعَالَمِ الَّذِي نَسَى
الضَّعِيفَ وَجَحَدَ حَقَّ الْفَقِيرِ وَالْمَسْكِينِ ، فَارْتَفَعَتِ الْمَادِّيَّةُ وَأَصْبَحَتْ هَا مَنْزِلَةً
مُحْتَرَمَةً ، وَمَكَانَةً مَعْرُوفَةً .. ثُمَّ عَاشَ الْفَقِيرُ وَالضَّعِيفُ فِي زَوَايَا النَّسْيَانِ عَلَى
فُتَاتِ الْمَوَائِدِ ، يَحْيَا حَيَاةً تَابَاهَا الْبُهَائِمُ الرُّنْعَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَرْفَعَ
صَوْتَهُ أَوْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ .. !!

فَلْيَنْظُرِ الْعَالَمُ الْمَوْبُوءُ الْآنَ .. فَلْيَنْظُرِ الْعَالَمُ الَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ الْخَلَاصَ مِمَّا
فِيهِ - فَلْيَنْظُرِ إِلَى عَائِشَةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ صَائِمَةٌ تُفَرِّقُ مِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَهِيَ فِي
أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى دِرْهَمٍ وَاحِدٍ مِنْهَا ، تُفَرِّقُهَا كُلِّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُبْقِي مِنْهَا شَيْئًا
لِنَفْسِهَا .. !!



يا لله ! .. لقد وقفت خادِمُ عائشة أم المؤمنين تعجبُ هذا الإيمانِ وذلك الإيثار ، إنها لم تجد لها مثيلاً أبداً بين النساء .. لقد نسيَتْ سيِّدتها عائشة نفسها .. إنها صائِمةٌ وهي كذلك صائِمةٌ مثلها ، وإنَّ الجوعَ يكادُ يفتِكُ بها فتكاً ذريعاً ، ولكن أنى لعائشة أن تأبه بالجوعِ يفتيها ويُرهِقُ أعصابها ، ما دامت تُشبعُ البطونَ الجائعةَ ، وتكسو الأبدانَ العاريةَ . وتُفرِّحُ القلوبَ الحزينةَ ، وتأسو الألفيدةَ الجريحة .. ١١

إلها ورَّعت مائة ألفِ درهمٍ في يوم .. وها هي ذى الشمسِ كادت تغرب ، وها هي ذى سيِّدتها قد نقضتَ يدها من ذلك المالِ الذى لا تجدُ فيه لذةً أو مُتعةً كما يجدُ الناس .. سواءً لديها أجماعٌ أم ذهبٌ - هو فقط طريقٌ إلى الآخرة ، يُدخِرُ هناكَ يومٌ لا ينفَعُ مالٌ ولا بتون ... ولكن ما معنى هذا ؟ .. أمعناه أن تبقى جائعةً لا تجدُ ما تُفطِرُ به ؟ .. لقد وجدتُ فى نفسها الشجاعةَ الكافيةَ لتُصارحَ سيِّدتها بهذا الأمر ، فربما احتاطت سيِّدتها وعملت ما يضمنُ لهما الإفطار .

قالت الخادِمُ فى أدبٍ ولُطفٍ :

- ما استطعتُ فيما فرَّقَت اليوم أن تُشترى لنا بديرهم لحماً نُفطِرُ عليه .
وكأنما وقعت هذه العبارة من السيِّدة عائشة موقعاً مؤثراً ، جعلها تستفيق من خُلُم .. حقاً .. إنها فرَّقَت مائة ألفِ درهمٍ ، ولم تبقَ شيئاً لها وخادِمها .. يا لله ،



لقد أساءها عيالُ الله وأحيائه نفسها فما عادت تذكُر نفسها التي بين جنبيها ..
ولكنها تقديرٌ أن تصيرُ على ألم الجوع ، بل ترى في هذا من الراحة المعنوية ،
والنعيم الروحي ما يعوضها عن كل ما فقدت ، فما بالها تنسى هذه الخادم !! ..
وكانما أحسّت من عبارة الخادم ريح العتاب واللوم ، فاستيقظت في نفسها
طبيعة الدفاع عن النفس فقالت لها على الفور في شيء من الدُعابة والظُرف :
لو ذكرتني لفعلت .. !!

فصنعت الخادم لأنها علمت أنها هي الأخرى نسبت نفسها في سبيل الله .



ثوب الخليفة..!



أَنْصَتَ النَّاسَ لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَحْدُثُ.. وَكَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِهِمُ الْعَلِيُّ ، لَا خَوْفًا أَوْ رَهْبَةً مِنَ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي يَكَاذِبُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَهَذَا وَوَرَعًا ، وَتَقْوَى وَإِيمَانًا ، فَمَا غَوَّهُمْ ذَلِكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ شِدَّتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَصَوْلَتِهِ وَسَطَوْتِهِ فِي خُدُودِ الَّذِينَ - وَأَمَّا أَنْصَرُوا إِجْلَالًا وَاحْوَاثًا لِلرَّجُلِ الَّذِي يَضَعُ الْأُمُورَ فِي بَصَائِهَا ، وَيَعْرِفُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَبْرَهُ وَمَنْزِلَتَهُ ، فَلَا ظُلْمَ وَلَا غِلْرَ ، وَلَا خِيَانَةَ وَلَا جَوْرَ ، وَلَا مُجَابَاةَ تَطْلَعُ عَلَى حَقُوقِ النَّاسِ وَتُطِيعُ غَلَبَتِهِمْ جَهْدَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ .. وَاعْتَقَدَ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنَّ قَوْلَةَ الْحَقِّ سَيَنْطَلِقُ بِهَا لِسَانُ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَمَّا قَرِيبَ ، وَأَنَّهُ سَيُفْصَلُ الْخُطَّةَ الَّتِي يُرِيدُهَا لِنَفْسِهِ ، وَيُرِيدُهَا لِلنَّاسِ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا رَضًا أَمْ سَخَطًا ، مَا دَامَ يُؤْمِنُ بِصَلَاحِ هَذِهِ الْخُطَّةِ إِيمَانًا يَفِيضُ بِنُورِ اللَّهِ ، وَيَصْطَوُّ بِضِيَاءِ الْحَقِّ ، سَامِي الْغَايَةِ ، رَفِيعِ الْغَرَضِ .

وَارْتَفَعَ الصَّوْتُ حَازِمًا قَوِيًّا يَسْتَرْدُّ صِدْقَهُ بَيْنَ هَذِهِ الرُّخَابِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي لَمْ تَعْرِفْ أَفْضَلَ مِنْ هَذَا الدِّينِ ، وَلَا أَرْوَعَ وَآخِرَ مِنْ رَجَالِهِ وَأَهْلِهِ ، قَالَ : « أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِمَا اسْتَحَلَّ مِنْ مَالِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ » .

وَاسْتَطَالَتِ الْأَعْنَاقُ وَشَخَصَتِ الْعْيُونُ ، وَطَرَقَ هَذَا السُّؤَالُ آذَانَ النَّاسِ فِي وَضُوحٍ وَإِشْرَاقٍ ، فَمَا أَمْسَ حَدِيثُ الْمَادَّةِ بِالنَّفْسِ ، وَمَا أَقْرَبَهُ إِلَى كُلِّ فُؤَادٍ ، فَهُوَ أَعْوَنُ شَيْءٍ لِلْمُضْئِلِ ، وَأَقْوَى سِلَاحٍ لِلْمُطِيعِ ، وَمَا أَحْوَجُ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ إِلَيْهِ فِي هَذَا الظَّرْفِ الْقَاهِرِ الْخَارِجِ ، وَهِيَ عَلَى أَبْوَابِ الْفَتْوحِ ، وَطَرَقَ هَذِهِ الْمَيَادِينَ الرَّحِيَّةَ ، الَّتِي تَقْتَدُّ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ وَالْفَرَسِ . وَتَفْتَحُ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْأَسْمَاعِ ، وَارْجَعْتَ الْآذَانَ ، وَاعْتَقَدَ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنَّهُ لَا بُدَّ سَيَكُونُ لَهُ بِمِقْدَارٍ مِنَ الْمَالِ يَكْفِيهِ ، وَيَحْفَظُ لَهُ هَيْئَةً كَخَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .. يَكُونُ لَهُ كِرَاتِبٌ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ لِنَظِيرِ إِدَارَتِهِ لَشُؤْنِهِمْ ، وَرِعَايَتِهِ أَحْوَالَهُمْ ، وَحِرَاضِهِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ .. يَدَّ أَنْ حَيَاةَ عَمْرِو بْنِ أَبِي حَتْمَةَ أَنْ تَفْصَحَ قَلِيلًا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الصِّبْغِ وَالْعُسْرِ ، وَالزُّهْدِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ .. يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالْعِظَمَةِ ، وَالْمَجْدِ وَالْحَدَمِ وَالْحَشَمِ ، مَا يَقَعُ إِلَى حَدِّ مَا مَوْقَعًا بِمِثْلِ حَيَاةِ كِسْرَى ، وَنَعِيمِ قَبْصَر ..

يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْإِمْبَرِاطُورِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْقَوِيَّةِ الْقَوِيَّةِ ، الَّتِي تَقُومُ عَلَى هَذِهِ السَّوَابِغِ الثَّابِتَةِ ، الَّتِي تَفِيضُ إِيمَانًا وَوَفَاءً ، وَإِخْلَاصًا لِلْحَقِّ وَنَصْرَتَهُ - مَظْهَرًا سَامٍ ، لَيْسَ فِيهِ بِلَذْخِ



ولا إسراف ، ولكنه في حدود الاقتصاد والحشم والوقار .. ولكن صوت غمر قطع
 حل هذه الأفكار ، وأرجع الناس إلى الواقع الذي لا شك فيه .. إلى الحق الصراح ،
 حينما أجاب هو على ذلك السؤال ؟

« خلتان لثباني وقبضي ^(١) ، وما يسقى من الظهر ^(٢) لحجتي وغمرتي ، وفوقتي بعد
 ذلك كفوت رجل من قريش ، لست بأرضهم ، ولا بأرضهم » .

وهمهم الناس بالتكبر والتهليل ، وتطلع بعضهم إلى بعض ، وقد عقدت الدهشة
 ألسنتهم ، وسبحوا في خصم من التورائية الروحانية التي تسمو عن الماديات ، وزاوا في
 غمر الخليفة العادل الذي لا يأنه بمظاهر الحياة ، وزخارف الدنيا ، القائد الأول لهذه
 الكتاب الإسلامية التي تضرب في ظلام الحياة ، تنيرة للناس ، وتوضح لهم الطريق
 الحق ، في صرامة وعزم .

لك الله يا غمر !.. خلتان فحشب : حلة ليرد الشتاء القارس ، وأخرى لقبظ الصيف
 لأليم ؟ .. إن الرجل العادي من الناس لا تكفيه هاتان الخلتان ، فكيف بالله يكفي خليفة
 مسلمين بهاتين الخلتين ؟ ولكن عمر بن الخطاب .. يعرف قيمة المال يستغل في رفاهية
 الأمة بأسرها ، لا لرفاهية الخليفة وأسرته .. ما أبعد الناس عن طريق الخير ، وسبيل التقى
 والصلاح .. لقد وضع غمر بهذا الدعامة الأولى لحياة الرجولة الجادة في بعدها عن الرينات
 الكماليات ، والنظر إلى الجوهر واللباب ، دون القشر والمظهر الخلاب .. !!

ثم ماذا ؟ .. ثم ما يكفيه من الإبل لحجه وعمرته .. أما الرفاهية والنعيم وما زاد عن
 الحاجة الماسة ، فلا حاجة له به ، ولا حظ له فيه ، فهو لا يجد وقتا لنفسه وحاجات
 نفسه ، وهو لا يجد فكرا يتجه به إلى مصالح الشخصية ومعة بدنه ، وإنما ملكت عليه
 مصالح المسلمين ومطالبهم كل وقته وفكره وجهده ، فهو لا يعيش هذه النفس التي بين
 جنبيه ، وإنما يعيش للناس جميعا ، للمسلمين عامة ، يأسو الجراح ، ويداوى المرضى ،
 ويواسي الحزين .. ويلقى بنفسه في الميدان مجاهدا مدافعا عن دين الإسلام دين الله ،

دين الحق ، مخاطراً بكل ما يملك من قوى وسلطان .

وهو لا يرى نفسه أرفع من أفراد المسلمين وأوساطهم . فلا حاجة به إذن لطعام خاص ، يعمل له يطبخه ونشويه ويحمّره ، ليميز به بين الناس ..

ولكن عمر صمت قليلاً ، وصمت الناس لصمته ، لقد كان يفكر في شيء يريد أن يقوله ، فماذا يريد يا ترى أن يقول ؟ وأخيراً انطلق الصوت في حيرة وأرباك وإشفاق :
« فوالله ما أدرى أجمل ذلك أو لا ؟ » .

سبحانك اللهم .. خليفة يلي أمر المسلمين يضع لنفسه هذا المنهاج الذي لا يكاد يفرق بينه وبين الأفراد المتوسطين من المسلمين ، ولا يكاد من يرى حياته ومظهره أن يرى شيئاً غريباً أو عجبياً ، ومع هذا ، فهو في شك من هذا المنهاج .. !

إذن فماذا يريد أن يكون ، وما الحلال إن لم يكن هذا هو أحلّ الحلال ؟ .. إن ما اتفقوا أن يأخذوه عمر من بيت مال المسلمين لا يتجاوز أن يكون نفقة لبيت مواضع جداً من بيوت المسلمين ، فلم يخرج إلى هذا الحد يا خليفة الرسول الكريم ؟ .. أشرف علينا بنورك يا عمر ، خليفة يداوى القلوب ، ويبرئ الأفتدة ، ويملأ الصدور .

وهكذا فاضت أحاسيس الناس ، وكلهم يرى عمر بن الخطاب متيقناً على نفسه وعلى أولاده خشية أن يكون قد أخذ من بيت المال أكثر من الحاجة .. ولكن هذه المشاعر كلّها مقترنة بالإعجاب والتقدير ، والإعزاز والحب ، ورفعة القدر ، وسمو المنزلة ، وما أجمل هذه الصلات بين خليفة وشعب ، وما أقوى هذه الأواصر بين حاكم ومحكوم .. وما أعجب هذا المنهاج القصير الواضح ، الذي لا يحوطه شيء من الغموض ، ولا نشوته شاذية من التفرير أو التضييل .